



قصة سورية

الضمرتان للسيدة وداد سكا كيني

—><—

قالت أمونة لصديقتها هدى : أرايت حسد الناس لصداقتنا ، ولنظهم في تأويلها وإحاطتها بالأقويل ؟ إنهم لا يودون أن يرونا كالأختين فينظهم أن يشهدوا صديقتين ألفت بينهما براءة المودة وظول المصاحبة وتقارب السن وحسن الجوار ، وإن شاؤا فبيننا وشائج القرى تحمك الصلة وتبهون اللقاء . أليس زوجك ابن خالتي ؟ أمي اليوم مكان أمه ، ولئن غاب عنه وجه الوالدة فإنه يراه في الخالة لقد بت البارحة قلقة عليك متألة لأملك ، إذ تركتك تشكين مداعماً ألباً فأصبحت أسأل الله لك الشفاء .

كان الصداق الذي ألم بهدى نذير حمي طرحتها في السري شهرراً ، وكانت أمونة لرفيقها خلال المرض موسمية وممرضة ، فلازمتها برضى أمها وبقيت عندها حتى دخلت دور البقاهة فغطمت يدها عند هدى وأكبرت صداقتها ومروءتها ، وخلطت حياتها بحياة أمونة حتى كانتا لا تاكلان أكلة شبيهة إلا معاً ولا تقترقان إلا غراراً . كل هذا والزوج يسبغ التهمة على زوجته هدى ، وينمرها بالخير إذ مده الله بتجارة رابحة وبركة راجحة . وقد أكرم أمونة ابنة خالته وقدم لها بعض الهدايا جزاء معروفها وإخلاصها كان طاهر زوج هدى كهلاً وقوراً ، أعز شيء لديه في حياته الدين ، وألذ عمل عنده القيام بواجباته وتوفير السعادة لبيته . وقد عرف فيه الناس التعفف والاستقامة والبعد عن الغبن والنش فعجبوا كلهم من اسمه الصادق ، فكانوا يقولون عنه : طاهر الاسم ، وطاهر الذمة والضمير ؛ ولكن الله لم يتم نعمته على الزوجين ، فقد مر على قرانهما خمس سنوات ولم يرزقا ولداً ، يوثق ما بينهما برباط أكيد ، وغلاً منزلها أنساً ومرحاً ، فكانت هدى

تحس الأمومة صارخة في غير زمتها ، فتمش عبقها من أطفال الناس حتى تهتاج طبيعتها وتشتد حيرتها . بيد أنها ترتد إلى عقلها بعد قليل فتكبت شعورها وتكفكف حدها خشية أن يلحظها زوجها إذ تحسب في سرها أنها عقيم . وكثيراً ما أفضت بدخيلتها لصديقتها أمونة ، وشكت إليها لهفتها على الولد وأنها تمنى أن تشتريه ببينها ، وتقتديه بروحها ، فكانت تجيبها : لا تيأسى يا صديقتي . إن الله هو الرزاق الكريم . ولما رأتها ملحفة في طلبها غدت بها على الأولياء تستجير بهم وتعدم بالنذور إذا رزقت ولداً . وقد استنثت بالشايخ الصالحين فقرأوا لها العزائم والتعاويد ، وحرقوا أمامها البخور ، وحملوها الحُجُب والآيات فما أبجبت عليها شيئاً لأن الله لم يشأ أن يجعلها ولوداً

كل هذا جرى دون أن يدري زوجها به ، فلقد كان مترماً متديناً لا يسمح لها بمفادرة البيت إلا قليلاً أو مع ابنة خالته التي ألفها واطمأن إلى أخلاقها من طول مقامها عنده وغشيانها داره وصحبها لزوجه . وقد حلف بأن تكون طالقاً إن ذهبت تطب للنسل . فاختلقت له أمراً لأنها كانت تظلمه وتبجه برغم تفاوت السن بينهما ، فأحست الأمان على حياتها الزوجية منذ صدف بها عن العالجة واستسلمت للقدر لعل الله يرزقها ولداً

كان طاهر تاجراً غنياً جمع ثروته بعد الحرب الكبرى ، واستطاع بماله الضئيل يومئذ وبماله من معاذير أن ينجو من الجندية؛ فلما توفر على تجارته وربحت أرواده أمه على الزواج ، فقد كاد يهدد للكهولة ولم تفرح بزواجه . فأطاع وفرحت ، ثم ماتت أمه فيتي وحيداً مع زوجته الحسنة . ومن ذلك الحين توثقت عرى الصداقة بينها وبين ابنة خالته أمونة التي كانت مخطوبة لموظف كبير ، ولكنها مترددة بين قبوله ورفضه

مضى على زواج طاهر خمس سنين ، بدأ في آخرها يمل حياته الرتيبة مع هدى ويعيل إلى تركها يوماً بمديوم مع ابنة خالته أمونة ، إذ دب في نفسه الحوف من الفناء قبل أن تظهر فيه عواطف الأبوة

فيكون لي زوجان وأكون بكاري أبي عادل الذي تزوج اثنتين وهو معترم هذه الأيام أن يبني الثالثة . وكثيراً ما حدثني من باب دكانه عن حياته الزوجية فقال : ما أحلى الزوجتين يا طاهر ! هما ريمحانان للشمس ؛ لكل ليلة ريمحانة

فكر في هذا طاهر . ولعب ذلك الريحان على أنفه في وهمه كأنه يد الشيطان ، وردده في نفسه صوت أمونة ، وهي تضحك وتصفق يديها ، وتضع حجراً من حجارة البرجيس على الآخر وترفع صوتها قائلة لهذي :

— خذي فنجان القهوة . مغلوبة . مغلوبة ...

فتنبه طاهر فور انتهاء (الدست) بين الأعبتين وجمع أشنات فكره من دكانه ، وهو يحاور جاره ، ومن ملاحظة أمونة ، ومن الأولاد الذين كان يحلم في خياله أن يأتوه منها فقال :

— يا هُدُو ! وكان يناديها بهذا اللفظ الموجز كلما أراد البث والدعابة — ماذا ترين وأنا كهل غني ولا وارث لي منك؟ فهل عليك من حرج إذا تزوجت امرأة ولوداً وأنت تبقين سيدة البيت كلنا نأتمر بأمرك ونهتدي بهداك ؟

فاسمعت هدى كلامه حتى فغرت فاهوا وانتفضت كأنها صعدت ، فامتقع لونها وطمى عليها دمع غزير صور على خديها معاني كثيرة من الذلة والخيبة والبنته والقتل . وكان بعض الدمع يساقط على خدها وبعضه تلقاه بتعديل في كنفها أو تمسحه بكفها دون وعي حتى نشجت أعصابها وكاد يصيبها النشيان فارتمت بوجهها على صدر صديقتها أمونة التي وجت وهبت . وانتابها عي وجود فلم تنطق بذات شفة وإنما غلب عليها التأثر والبكاء مشاركة لرفيقتها لقد كانت أمونة ذات قلب سليم حيال ابن خالتها فلم تعلم أنها ستكون الضرة المرة ، وما عرفت أنها ستزل على صديقتها كالنقمة والبلوى ، بل لم تشعر في يوم من الأيام أن فكلمها يدور هذه الدورة فيبدل الصداقة عداوة والمراقبة الرقيقة إلى مفارقة قاهرة .

لقد حمل طاهر إلى ابنة خالته مهرأ غالياً ، وهدايا كثيرة ثمينة ، وحمل خالته على قبوله صهراً فما صدت ولا ردت ، وإنما وجدت في إقدامه على الزواج مرة ثانية عقلاً وحكمة وصوناً لثروته من الضياع ، وعرفت أن ابنتها أمونة ستكون ولوداً مثلها فلقد أجبته هي ثلاثة من البنين والبنات وهي جدة لأولاد أحدهم . فأبت بنتها هذا الزواج وحاولت التمرد والعصيان إذ استحتمت نفسها واحتقرت أن تكون ضرة لرفيقتها فإذا يقال عنها ؟ أية سمعة ستكون لها ؟ أية مضنة ستكون في أفواه الناس ؟ ولكنها رغم

وطمع في خلود الذكر من بعد موته بالولد الذي يدل عليه وضعت به هدى ، فصار يرى بيته صامتاً جامداً لا يهز فيه سرير ولا يناغم طفل ، ولا تتردد في حجراته لفظة «بابا» فضاق عليه البيت بما رحب وكره الحياة من أجل ذلك ، فأخذ يشأ زوجته ويحتويها ويتبرم بمحبتها ويتلصقاً في طلباتها . وقد خيل إليه الوهم والهلم أنها عاقر وأن حياته معها جدية ، مع أنه يعرف في نفسه وفي ضميره أنه هو المقيم ، فتذكر شبابه الطائش وتمرضه باستهتاره لمرض شائن ، تاب بعد شفائه منه توبة نصوحاً ولكنه أورثه داء عقماً حرمه النسل كان يشور على زوجته هدى في سره لعقمها الموهوم ، ثم يعود في نفسه إلى الهمورد والجود حين يرى هذه النفس الباغية هدفاً لتلك الثورة وبينما هو مطرق ذات ليلة تلقاه الموقد اللاهب والوقت شتاء ، تمصف فيه الرياح العاتية التي صده عن السمر في دار صديقه صرحت أمامه قطته «فلة» التي يعطف عليها ويختصها بطيب الآكال ، فلما حاذته تمطت ونفشت شعرها ، فأخذ يعبث به ويربت بكفه على ظهرها ، فلمعت إذ ذاك في خاطره صور وأفكار ، ورأى القطة في نظره الحائق خيراً من زوجته المقيم ، هذه شجرة بلا عمر ، وتلك ولود تملأ البيت كل عام بأولادها . وفيما كان يقبل الخواطر في ذهنه تلفت إلى بيته فرآه ساكتاً ساكتاً إلا من صوت زوجته هدى وابنة خالته أمونة وهما في فورة اللعب بالبرجيس^(١) وغمرة الحماسة للقلاب ، ومن مواء القطة بين الفترة والفترة ، فظفت عليه الهواجس وشعر بكره لامرأته ، ونفرة منها ، فأخذ يميل بوجهه عنها ويوجهه إلى أمونة فيقارن بينها وبين زوجته التي غاض منها ميم الجمال في تلك الليلة في نظره فتخالس عيناه نظرات الإعجاب بابنة خالته ، ثم جال طرفه الرغيب في جسمها الريان ووجهها الأبيض الجازب وشعرها الفاحم المتدلى على كتفيها اللتين انحدرت منهما يدين كأنهما ركبتا في دمية من الرمس ، فانشرح صدره وتمدد على أريكته بإزاء المدفأة ثم لوى ذراعه تحت رأسه فأسند فوده عليه وأخذ يتأمل في ساق أمونة المدودتين إلى الأرض وقد امتلأنا صفالاً وانسجاماً وأحيطنا بظلال من النعومة والجمال . ولما أطال التحديق فيها وهي جالسة تجاه زوجها لاهية بلبسة البرجيس رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التي يمتناها له زوجة ثانية ، فارتد يبصره عنها بعد فترة من اللعب لكيلا تلج نظراته الحافظة الماكرة ؛ أما قلبه فبقى يرنو ويشتهي فقال في ضميره : ترى أي بأس على إن تزوجت أمونة ، وقد رفضت خطيبها الكبير المقاصر

(١) الهبة سورية يلب فيها بودمات وأحجار وهي في رقتها على شكل صلب مربع

— يا خائن ، يا عبد الشهوات ! أنت العاقر الذي كنت في شبابك
فاسقاً فأصبت بالعمى ولم تنسل فما ذنبنا نحن ؟ وهمت بضربه بقطعة
من الخطب كانت في جانب الموقد
'جن جنون طاهر من هول الفضيحة ، وحش الشيمة ،
واجترأ زوجته وابنة خالته على إهائته وضربه فقال لها بمكر وخبث :
— لا تصدق يا أمونة . إنني أصرح لأرى إن كنت
تجبنني أم لا ؟

أما أمونة فقد شعرت ببنته السيئة ، وأدركت ما يضر
في طويته لها فهاجته وقامت عليه ناقة نائرة ، والله يعلم كيف
مضت عليها تلك الليلة المشؤمة . فلما طلع النهار دلفت أمونة
إلى بيت صديقتها القديمة وضرتها المهجورة ، وهي على استحياء
من نفسها تتقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى كادت تتراجع القهقري
وتردد في مواجهة رفيقها بالأمس ، لولا أن عادت إليها بجرأة ،
وئارت فيها الغيرة الجديدة والنقمة على زوجها ، فشهدت
وتشجعت وطرقت باب هدى طرفات خفيفة فودت عليها بفتحها .
وما إن كشفت أمونة عن وجهها المحجوب حتى وقفت الأولى
جامدة كالصم ، وشزرت ضرتها بعينين كالحربتين ، فارتدت أمونة
على قدمي هدى وحاولت تقبلهما ، ثم قامت إليها بالعناق والتقبيل
وبالكاء والنحيب ، فلم يكن من هدى إلا أن أبدت عجبها من مظهر
ضرتها الكئيب ، وسألها على كره منها :

— هل من بلية حلت بظاهر ؟

— لعنة الله عليه ! إنه يجني علىّ وعليك . ليت عزرائيل
يتقدنا منه قبل أن يتقد إرادته الجديدة .

— وماذا يريد ؟

— فاهترت أمونة وارتجفت يداها وتلعثت وكاد يغمى عليها
لولا أن تداركتها هدى واستدرجتها إلى الجواب . فعلمت منها
أن طاهرأ يريد الزواج ، وشاعت حينئذ الشهامة على وجهها ووضعت
السخرية في لفتاتها وحركاتها ، فسلفت أمونة بلسان حاد أصاب
منها مقتلاً كأنه الرصاص . وصحكت أمامها لتريد في نكاتها وإهائتها
فشعرت أمونة بكبريائها المحطمة ، وضعضعت الشهامة ولكنها
صمدت للنهاية وبجالت فبلغت ريقها وبلت حلقها الجاف من طول
الكلام والبكاء ، ثم أخذت تستطف هدى بصوت ذليل خفيض
والتمست صفحها . فلما رقت ولانت أفضت إليها بنيات زوجها ،
وظفقت تستمدحها عليه وتستفزها للثأر منه بجمرة الموتور ، وجلستا
تفكران مطرقتين كأنهما في بحر الجحيم ، وتقدران ما يبنى لها
من الحيلة والحذر من وقوع الكارثة . ومرعان ما زال من هدى

كل مقاومة ومماندة أفلحت أمها في إكراهها على الزواج فقد وسوست
في عقلها كالشيطان ، وزينت لها حياة الثراء والرخاء عند ابن خالتها .
وأندرتها باليوار والكساد إن أصرت على رفضه وآتت العنان .
فتنازعا عاملان : تزوعها إلى الزواج كيف اتفق شأنه بعد إخفاقها
في خطبتها للموظف ، وحرصها على مودة صديقها والوفاء لها . فغلبها
على أمرها ما خلقت له وهو الزواج وفي النفس ما فيها من خوف
وعذاب ، فأطاعت أمها على مضاء وعقد لها على ابن خالتها وزفت إليه .

ومضى زمن قصير فإذا هدى تنقلب فيه إلى امرأة شرسة
طاغية . كلما لسعتها الغيرة نارت بأوعية البيت وآنية الطعام فهشمها
وداسها بقدميها ، ولنتت الرجال ، ونقمت على الصداقة التي طمنها
في الصميم . وإذا جاء طاهر ليبيت عندها ليبيت الخاصة تنكرت له
وتجهمت وانكفأت إلى عزلتها الأليمة ، ولا يزال قطعاً من الليل
يتملقها ويترضاها وهي تتميز من الغيظ ، وتمزق من القهر ،
حتى تنفجر باكياً فيتركها ريثما تهدأ ثم يتام . وبقى على هذه الحال
بضعة أشهر حتى قطع عنها ليلتها وجعلها كل أسبوع مرة . وبعد
سنة صار لا يزورها إلا لماماً . وكلم كانت الغيرة تنفص عيشها
كلما فكرت في ضرتها وخيانتها وزهاده زوجها فيها وعزوفه عنها
تصرمت خمسة أعوام على زواجه الجديد ، فلم تلد له أمونة
ولداً ، فنار عليها في نفسه ثورته على هدى . ثم فكر كثيراً ،
وتذكر ملاماً فرد ثورته إلى نفسه وأدرك إخفاقه في النسل ، فاستقر
في ظنه أنه هو العقيم ، لا هاتان المرأتان المظلومتان . غير أن خوفه
على اتهام نفسه وامتهانها جعل في فكره منطقاً فاسداً صور له براءتها
فأحدث له شكاً خرج منه إلى أن زوجته الثانية عاقر كالأولى ، فقص
هذا على جاره الأدنى في السوق وكان يستخلصه لنفسه ، ويستشير
في شؤونه . فقال له : لقد تزوجت الثانية حسباً أثرت فلم تلد ، وأنا رجل
غني ، كما تعلم ، فماذا أفعل ؟ فأشار عليه بالزوجة الثالثة وتطبيق الأولى
في مساء ذلك اليوم عاد إلى بيته الثاني ، وقال لابنة خالته
فيما قال من حديث السر أمام المدفأة في الشتاء : أترين يا أمو —
وصار يخاطبها بهذا اللفظ المقتضب كما كان ينادى زوجها الأولى —
كيف أنك لم تحملي بولد برثني ، وقد صرت إلى حال من التئوط
تمنيت معي الموت . وقد أشاروا على بالزواج لعل حظي من الولد
يوافيني من الثالثة ، على أن أطلق لك الضرة الكريمة التي تبغضك
وتظعن فيك وتدعو عليك بالموت .

فما سمعت أمونة هذا الكلام حتى مرت في طور صديقتها
تلك الليلة الماطرة قبل خمس سنين ، فاصفرت وبكت وانقضت
على ابن خالتها كالمجنونة وساحت به :